الافتراض السابق في خطب الكَلاعي في كتابه (نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال)

أ.م.د. همسات محمد حسن الباحثة: أزهار سلطان زغير
الجامعة المستنصريّة/ كليّة التربية
Hamasat.ali.ho@gmail.com

الملخص:

تعدُّ التداولية آخر إنجازات الدرس اللساني، وقد جاءت مباحثها بلحاظ هذا التطور، وفي الطليعة من مباحثها الافتراض السابق الذي يُعنى بدراسة الجوانب الضمنية في الخطاب، ويسعى هذا البحث إلى الوقوف على الافتراضات السابقة في خطب (الكَلاعي)[*] (ت٦٤٣هـ)؛ التي هي جديرة بأن تدرس دراسة تداولية؛ لأنَّها تشتمل على قضايا لغوية وسياقية تحمل كثيرًا من المضامين الاجتماعية التي جعلتها أنموذجًا تداوليًا، وجعلت البحث في مبحثين ، المبحث الأول: الجانب النظري، والمبحث الثاني: الجانب الإجرائي.

الكلمات المفتاحية: (افتراض سابق، خطب، الكلاعي).

The previous assumption in Al-Kala'i sermons in his book (The Joke of Proverbs and the Sprinkle of Lawful Magic)

A'azhar Sultan Zghair Dr. hamasat Muhammad Hassan

Al-Mustansiriya University / College of Education

Abstract:

Pragmatics is the last achievement of the linguistic lesson, and its investigations came with the notice of this development, and at the forefront of its investigations is the previous assumption that deals with the study of the implicit aspects in the discourse, Pragmatics is the last achievement of the linguistic lesson, and its investigations came with the notice of this development, and at the forefront of its investigations is the previous assumption that deals with the study of the implicit aspects in the discourse,

[*] هو أبو الربيع بن موسى بن سالم بن حسان الكَلاعي الحِميري البلنسي، ولد بخارج مدينة مُرسِيّة سنة (٥٦٥هـ)، كان من أكابر أهل العلم في الأندلس، عُني أتمَّ العنايّة بالتقييد والرواية، حافظاً للحديث، ضابطاً لأحكام أسانيده، وكان خطيباً مفوهاً، ريّان من الأدب اشتهر بالبلاغة والفصاحة، ولي القضاء في بلنسيّة وحسنت سيرته واشتهر بالعدل والشهامة. استشهد في واقعة أنيشة، سنة (٦٣٤هـ). ينظر: التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبّار (ت٦٥٨هـ): ٤/٦٥-٦٨، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، للمراكشي (ت٧٠٣هـ): ٢/٨١-٨٦.

This research seeks to stand on the previous assumptions in the speeches of (Al-Kala'i) (634 A.H), which are worthy of pragmatic study; Because it includes linguistic and contextual issues that carry many social implications that made it a deliberative model, and made the research into two sections, the first topic: the theoretical side, and the second topic: the procedural side.
Keywords: (previous assumption, sermons, Al-Kala'i).

المبحث الأول

الجانب النظري

يعدُّ الافتراض السابق واحدًا من المبادئ التداولية التي ترتكز على السياق وعلى ما يفترضه المتكلم، لا ما تقرّره أو تفرضه قوانين اللغة (كاظم، ٢٠١٥: ٨٠) ، فـ((عند كل عملية من عمليات التبليغ، ينطلق الأطراف (المتخاطبون) من معطيات أساسية معترف بها ومعروفة... لا يصرح بها المتكلمون وهي تشكّل خلفيّة التبليغ الضرورية لنجاح العملية (التبليغية). وهي محتواه في القول سواء تلفظ بهذا القول إثباتًا أو نفيًا)) (الجيلالي، د. ت: ٣٤) (صحراوي، ٢٠٠٥: ٣٠-٣١)، فالعملية التي تقوم بين المتكلم والمخاطب هي معطيات وافتراضات تُمثل أرضية التخاطب لإنجاز عملية التواصل(بوخشة، د. ت: ٣٣).

ما الافتراضات إلاَّ حدس طبيعي من مخزون الكفاية اللغويّة، يتفاوت قدره على اختلاف أقدار مواهب أطراف الخطاب ، والثروة من الخبراتية والثقافية، ولا يغيب عنا أنَّ ذلك الحدس إنجاز التكافؤ بين طرفي الخطاب، ومجهود مهم لحفظ التوازن من أجل تداول المعاني الدائرة حول موضوع تجتمع حوله أطراف الخطاب؛ لذلك قيل: التداولية هي ((دراسة كيفية إيصال أكثر ممّا يقال))(يول، ٢٠١٠: ١٩)، إذ إنّ المتكلم يفترض أنَّ المتلقي يعرف المعلومات غير المصرح بها لأنها تعامل على أنّها معروفة؛ لذا تعدُّ جزءًا ممّا يتم إيصاله من دون قوله(يول، ٢٠١٠: ٥١)، فالافتراض السابق هو ((شيء يفترضه المتكلم، يسبق التفوه بالكلام)) (يول، ٢٠١٠: ٥١)، وبهذا نفهم أنَّ المتلقي طرف شريك في نجاح التداول ((فلا وجود لدلالة معطاة بشكل كلي وتام ونهائي قبل تدخل الذات القارئة التي تقوم بإعادة بناء القصديات الضمنية المتحكمة في العلاقات غير المرئية من خلال التجلي المباشر للنص)) (إيكو، ٢٠١٠: ٢٢).

فهو إدراك سابق واستيعاب، فإذا قال المتكلم للمخاطب: أغلق النافذة، فالمفترض سابقًا أنَّ النافذة مفتوحة، وأنَّ المخاطب قادر على الحركة، وأنَّ المتكلم في منزلة الآمر(نحلة، ٢٠٠٢: ٢٦)، وكل ذلك موصول بـ((سياق الحال، والعرف الاجتماعي، والعهد بين المخاطبين، وما يفترضه الخطاب من مسلّمات يأتي المعنى من منطلق وجودها اعتبارًا، وينقض الكلام عند غيابها))(عكاشة، ٢٠١٣: ٨٦)، فالافتراضات السابقة هي معلومات لم يصرح بها المتكلم، بل يأتي بها بطريقة تلقائية في القول الذي يتضمنها، تقول (أوريكيوني): تُصنَّف ((في خانة الافتراضات كل المعلومات التي، وإن لم تكن مقررة جهرًا (أي التي تشكّل مبدئيًّا موضوع الخطاب الكلاميّ الحقيقيّ الواجب نقله)، إلاَّ أنها تنتج تلقائيًا من صياغة القول التي تكون مدوَّنَة بشكلٍ جوهريٍّ، بغض النظر عن خصوصيّة النطاق التعبيري الأدائيّ))(أوريكيوني، ٢٠٠٨: ٤٨).

وسمي الافتراض السابق بـ(الاقتضاء التداولي)(ريبول، ٢٠١٠: ٢٤٩) (فرانسواز، ١٩٨٦: ٥٢)، و(الافتراض التداولي أو الاستسلاف)(فاخوري، ٢٠١٣: ٩٩)، وعرّف تعريفات متعددة، منها تعريف (جان سيرفوني) الذي عرّفه بأنّه: ((إحدى الوسائل التي تقدمها اللغة من أجل الاستجابة للحاجة المستترة التي يشعر بها المتحدثون في عدد كبير في المواقف وهو "وسيلة للقول وعدم القول"))(سيرفوني، ١٩٩٨: ١٠٢)، ولقد أسند (جان سيرفوني) بقوله هذا الافتراض إلى اللّغة، وأحسن التعبير بجعله الافتراض وسيلة لغوية تأتي على سبيل المنحة اللغويّة، ولا شك في أنّه يقصد الكفاية اللغوية التي تتبادر عند أطراف الخطاب، ثم يعقب التبادر التمييز الارادي للتوسل بها أو تركه بحسب مقتضيات الحاجة والسياق.

وعُرّف أيضًا بأنه: ((المضمون الذي تبلغه الجملة بكيفية غير صريحة))(موشلار، ٢٠٠٣: ٤٧).

وأرى هذا القول ذا لمحة ذكية؛ لأنّه يكاد يؤنسن الجملة؛ لأنّه جعل الافتراض السابق تعبير الكلام عن نفسه ساعة إنتاجه وتلقيه، ويبدو لي أنّه بهذا الفهم يمثل

منطلق التأويل ومبتدأ الإدراك، فضلاً عن أنَّ هذا الفهم يجعل التأويل الآتي من سمة (غير التصريح) مقدّمًا على الإدراك العرفي للحقيقة اللغوية.

أمّا (ديكرو) فقد عرّفه بأنّه: ((العنصر الدلالي الخاص بالقول أو تحويله إلى الاستفهام هل؟ وإلى نفيه))(بلخير، ٢٠١٣: ٦٢).

مثال ذلك: توقف الرجل عن الكتابة.

وإذا ما حولناها إلى صيغة (استفهام): هل توقف الرجل عن الكتابة؟ والنفي: لم يتوقف الرجل عن الكتابة.

نستنتج من هذه التحولات الثلاث أنَّ (الرجل كان متعلمًا)، وهذا يعدُّ افتراضًا سابقًا، فقد تمكنّا من معرفة حال (الرجل) من خلال الصّيغ التي قدمها المتكلم، وهذا ما اصطلح عليه (ديكرو) بـ(القول المقرّ) من الفعل (أقرّ) (بلخير، ٢٠١٣: ٦٢).

وللافتراض السابق خصائص منها، أنّه يرتكز على المعرفة المشتركة[*] بين المتخاطبين، فعملية ((الافتراض هي ما يعتبره المتكلم أرضيّة مشتركة مسلّمًا بها لدى كل أطراف المحادثة)) (بلخير، ٢٠١٣: ٣٧)، إذ ((ينطلق المرسل من عناصرها السياقيّة في إنتاج خطابه، كما يعوّل عليها المرسل إليه في تأويله))(الشهري، ٢٠٠٤: ٤٩).

ومن خصائصه أيضًا أنّه ((يفتقر إلى علامات تُسهل تحديده)) (سيرفوني، ١٩٩٨: ٥٣)؛ لذلك تتصف الافتراضات السابقة بأنها ((أقلّ قابليّة للإدراك وأقلّ أهميّة (ظاهريًا) وأكثر تبطينًا، ممّا يجعلها محتويات مضمرة عن جدارة، ويُشكّل هذا التبطين في آنٍ مصدر قوتها)) (أوريكيوني، ٢٠٠٨: ٤٦)؛ لصلتها باستنطاق المنطوق، وجني المضمون، والتعامل مع الكلام بوصفه رموزًا وراءها معانٍ ودلالات مرومة، مثلما وراءها نتائج منطقية كلما استوعبت وأُدركت وأُحيط بها كلما تسلح المتلقي بما يمكنه من تعزيز اللحمة بالمتكلم والتواصل معه، فإذا قال المتكلم: وصلني خطاب من محمد

[*] يطلق (ديكرو) على المعرفة المشتركة مصطلح (معرفة الاقتسام).(ديكرو، د. ت: ٦٨٥).

بخط يده وقد كتبه بخطي النسخ والرقعة، فالنتيجة المنطقية أنَّ محمدًا عالم بفنون الخط العربي.

أو أن يقول المتكلم: وصلتني رسالة محمد يقول فيها مبتدئًا: يا ولدي، فالنتيجة المنطقية أنَّ محمدًا يكبر المتكلم. وهكذا.

وقد عدَّ (ستراوسن) الافتراض السابق ((علاقة تداولية بين الأقوال لا علاقة دلاليّة بين القضايا)) (ديكرو، د. ت: ٢٤٩).

وربما يحسن القول: إنّ ستراوسن – إن كانت الترجمة صحيحة – آثر السمة اللغوية، وإلا فإنّ العلاقة التداولية بين القائلين وليست بين الأقوال، والعلاقة بين الأقوال دلالية تركيبية سياقية. أمّا تعالق القضايا فتعالق وجودي وواقعي من قبيل التعالل أو التسبيب.

أما أهميّة الافتراض السابق فقد بيّنها (جوفمان) من حيث إنّ ((المتكلمين يدركون (في اللاوعي) أنَّ سامعيهم يعتمدون على الافتراضات السبقية في محاولتهم فهم ما يقال لهم، ويعتقد أنّ المتكلمين بدورهم يدركون أنَّ من مسؤوليتهم – تلك المسؤولية التي أطلق عليها "جوفمان" مصطلح (شرط اللباقة – تقديم مساهماتهم في المحادثة الدائرة بطريقة تمكن سامعيهم من فهم المعنى المقصود، بالاعتماد على الافتراضات السابقة المتوافرة لديهم))(جوزيف، وآخرون، ٢٠٠٦: ٢٤٥) (رمضان، ٢٠١٣: ١٠٤)، وشرط اللباقة وسيلة عرفية ثقافية؛ لذلك تتفاوت بين المتكلمين، ومن هذا التفاوت عُدّت العناية بها والحرص على توافرها من المهمات خشية ضياع المقاصد والمعاني؛ لذلك يمكن القول: هي عقد تواصل اجتماعي ثقافي، فـ((نحن عندما نشترك في أي نشاط لغوي، فإنّنا نعتمد، بشكل غير واعٍ، على مصادر معرفية وثقافية واسعة، ونستدعي نماذج وأُطرًا لا تحصى، ننشئ روابط متعدّدة ونرتّب أنساقًا واسعة من المعلومات، ونساهم في تعيينات وإبلاغات وإيضاحات مبدعة، وهكذا نجد أنَّ اللغة لا تمثّل المعنى، بل اللغة تحضّ على تركيب المعنى في سياقات محددّة بنماذج ثقافية ومصادر معرفية محدَّدة)) (كاظم، ٢٠١٥: ٩٦–٩٧).

وقد ميّز التداوليون بين نوعين من الافتراضات السابقة، هما:

١- الافتراض السابق المنطقي أو الدلالي:

الذي يكون مشروطًا بالصدق بين قضيتين، فإذا قلنا: إنّ الاطروحة التي كتبها زيدٌ كانت تحقيق مخطوطة، لزم أن يكون قولنا: زيد حقق مخطوطة صادقًا.

وعندما نقول: إنّ الدار التي يسكنها محمد ورثها من أبيه. لزم أن يكون قولنا: محمد يسكن في بيت موروث صادقًا.

أو أن نقول: إنّ القصيدة التي كتبها سعيد من الشعر الحرّ، لزم أن يكون قولنا: سعيد يكتب شعرًا حرًّا صادقًا أيضًا.

فهذه الأمثلة جميعها صادقة مطابقة للواقع لأنها مبنية على افتراض سابق(نحلة، ٢٠٠٢: ٢٨-٢٩)، وهذا الضرب من هو الذي ذكرتُه وأسميته بالنتائج المنطقية.

٢- الافتراض السابق التداولي:

وهو ليس مشروطًا بالصدق بين قضيتين، ويبقى قائمًا غير متأثر بالنفي(نحلة، ٢٠٠٢: ٢٨-٢٩)، ويوصف هذا النوع من الافتراض ((بالإطراد عند النفي... وتعني من حيث الأساس أنَّ الافتراض المسبق لمقولة ما سيبقى ثابتًا (أي صحيحًا) حتى عند نفي المقولة))(يول، ٢٠١٠: ٥٣) ، فإذا قال شخص: سيارتي جديدة، ثم قال سيارتي ليست جديدة، فعلى الرغم من التناقض في القولين إلاَّ أنَّ الافتراض السابق وهو أنَّ له سيارة لا يزال قائمًا في الحالين(نحلة، ٢٠٠٢: ٢٩).

ويبدو لي أن هذا اللون من الافتراض ليس بعيدًا عن المنطقية، بل منطقي أيضًا لكنه افتراض مستقل.

ففي قولنا: - إنّ الأطروحة التي كتبها زيد كانت تحقيق مخطوطة.

- زيد حقق مخطوطة.

الافتراض التداولي: زيدٌ كتب أطروحة سواء أكانت مخطوطة محققة أم لا.

وفي قولنا: - إنّ الدار التي يسكنها محمدٌ ورثها من أبيه.

- محدٌ يسكن في بيت موروث.

الافتراض التداولي: محمدٌ عنده دار سواء أكانت موروثة أم ليست موروثة.

وقولنا: - إنّ القصيدة التي كتبها سعيدٌ من الشعر الحرّ.

- سعيدٌ يكتب شعرًا حرًّا.

الافتراض التداولي: سعيدٌ شاعر سواء أكانت قصيدته من الشعر أم غيره.

ويمكن استنتاج افتراضات سابقة أخرى. ولعل الحسنى في القول إنّ الافتراض السابق تداولي من دون حاجة إلى هذه القسمة، وهذه الأمثلة من الافتراضات السابقة ((تجعل الحوار مؤسسًا على ما يقتضيه سياق التركيب، ومن ثم تفهّم مقاصد المخاطب حتى يتمكن من محاورته بالطريقة التي تفرض التواصل))(بلعلي، ٢٠٠٣: ٢١٨).

وقد اقرّت (أوريكيوني) إنّ الافتراضات التداولية ((تتشاطر كل الخصائص التي تتحلى بها الافتراضات الدلاليّة – إلاَّ أنّها تتفرَّد بميزة أنّها تكون قابلة للدحض، ويمكن التعليق عليها بشكل ألسني لغوي انعكاسي)) (أوريكيوني، ٢٠٠٨: ٧١)(مشتة، ٢٠١٥: ٨٧) ، ولا يمكن الوقوف على هذين النوعين من الافتراضات السابقة ((إلاَّ بما يسمى بالمناهج التأويلية التي تتيح لصاحبها استنطاق البنية اللغوية وإثرائها بالمعاني والدلالات، استنادًا إلى جملة من الشروط أوّلها السياق))(فوزية، ٢٠٠٩: ١٢) (مشتة، ٢٠١٥: ٩٠).

وينتهي بنا القول إلى أنَّ الافتراض السابق طاقة لدى المتكلم تجتمع من تجاربه وخبراته وقوة حدسه، وبذلك يعدُّ الجزء الخفي المعنوي الذي يسهم في تأليف الكلام المعبر عن القضية، والمعبر عن موقف المتكلم في مقام الكلام عن القضية، وكلما نضج الافتراض السابق كلما قوي الجانب المعنوي للمتكلم وارتفعت درجته، ولا شك في أنَّ ذلك على صلة بمقومات الشخصية من جهة المزايا الاجتماعية والمعرفية، ويمكن وصفه بأنّه مظهر من مظاهر الإحاطة اللازمة لنجاح العملية التواصلية؛ لأنّ التجربة رافد مهم يمنح المتكلم النظر الدقيق بتفاصيل القضية؛ لذلك من شأنه أن يمده بأسباب التأثير في المتلقي عن طريق قوانين الخطاب، ونستطيع القول إنّ الافتراض السابق كلما ازداد ثراءً ودقةً وصوابًا كلما زاد نصيبه من حفظ التواصل وانجاح العملية التواصلية وانجاز قوانين الخطاب.

المبحث الثاني

الجانب الإجرائي

وبعد الانتهاء من الجانب النظري ومناقشة ما تضمنه من قضايا ننتقل إلى الإجراء الذي نؤسسه على التنظير، حيث نجد قول الكلاعي: ((**لا تُصِخْ إلى مَن يحضُّكَ على الأهمال، ويحملُكَ على اطّراح الأعمال، مؤنّسًا لكَ بمُمكِن العَفْوِ في المآل. فأخدَعُ مِن ضَبٍّ حَرَشْتَه، مَن أنَّسكَ عن الله بغير ما ينبغي وقد أوحَشْتَه. فَأكذَبُ من الأَخيذِ الصَّبحانِ مَن أطمَعَكَ حديثُه بالرِّبح في موضع الخسران**))(الكلاعي، ١٩٩٥: ٢٢٧).

هذا الخطاب الذي يحض فيه الكلاعي المخاطب على إنجاز ما وجب عليه، وأن يحذر حبائل مَن يغريه بالعفو والصفح في قابل، يقوم على افتراض سابق هو وجود مَن يعمد إلى تزيين ترك العمل متوسلاً بالأمل ليقنع الآخرين، فضلاً عن نجاعة هذه الوسيلة في صرف العامل عن عمله، وكذلك تجربة المتكلم (الكلاعي) وأنّه خبر أولئك المثبطين ودعاة الإهمال الذين يأتون المرء من مأمنه، ويظهر جليًّا أنَّ الكلاعي بنى خطابه بأسلوب مستوحًى من افتراض سابق هو حلاوة أساليب دعاة الإهمال، وهذا واضح من ألفاظ (مؤنّسًا، والعفو، وأنّسك، وأطمعك حديثه، والربح) فالافتراض السابق أنَّ أساليب أولئك الدعاة أساليب مستملحة تستهوي المتلقي، وبذلك يكون الكلاعي قد أحاط بالخطاب التسويفي الداعي إلى مجانبة طاعة الله والتنكب عن نهج رضاه، فقد جمع بافتراضات سابقة التركيبين اللفظي والدلالي اللذين خبرهما من أساليب مَن حذّر المتلقي منهم.

وقال أيضًا: ((**وما لأحدٍ بعذاب الله قِبَل، ولا يعصِمُ من أمره – تعالى وتقدّس – سَهلٌ ولا جبل، فاستحيي من الله حقَّ الحياء، وخَفْ من أنّك لا تزال تجيءُ بالرَّقِم الرَّقَماء، والدَّاهيةِ الدَّهياء، وهو يُسبِلُ عليك في كَلِّ ذلك سترَ الإبقاء، ويُمهِلُكَ لتعدِلَ إلى طريقَ السَّعادةِ عن طريق الشقاء، فإن كرّرتَ إليه لَحظك، أجزَل من خيراته حظّك**)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ٢١٧).

خطاب الكلاعي في هذه الموعظة الجميلة المصوغة صياغة أدبية عذبة يتضمن افتراضًا سابقًا هو أنَّ المتلقي ممن قرأ القُرآن؛ لأنه اقتبس كلامه من قوله تعالى: چۇ

ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ چ (سورة هود: ٤٣) ، على لسان نوح (عليه السلام) يوم دعا ابنه إلى النجاة بركوب السفينة والذي قاله ردًّا على قول ابنه چ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ چ(سورة هود: ٤٣).

ولما كانت الأبوة بادية في ذلك الحوار بدوًّا لفظيًا من ورائه عاطفة واشفاق، فإنّ اقتباس ألفاظ ذاك الحوار حمل معه ذلك الأثر المعنوي؛ لذا غشي خطاب الكلاعي ما غشيه من هدأة الحنان والعطف.

وثمة افتراض آخر نلمحه في قوله: (فاستحيِي من الله حقَّ الحياء) ذاك أنّه افترض تأثر المخاطب بالخلق الاجتماعي الذي يحتم احترام المحسن المشفق، والاستحياء من مجازاته بغير الإحسان.

ومن الافتراض الذي أقام عليه خطابه أنّ المتلقي ذو ملكة تمييزية منطقية؛ لأنّه جعله بين نقيضين، أولهما: عذاب الله الذي يعني الشقاء والتعاسة، وآخرهما: السعادة الموعودة بالعدول عن جادة المعصية والشقاء، فالمتلقي بحسب هذا الافتراض يتحلى بالمنطق ليحدد اختياره ووجهته.

ومن جميل ما يستشهد به قوله: ((**أكرّر وصيتَكَ بالاعتزال، فالعزلةُ عِبادَة، ونِعمَ صومعةُ المؤمن بيتُه، يكفُّ سَمَعَهُ وبَصَرَهُ ويْقَصُرُ على اعتياد الانفرادِ أثرَه، وإنّما الخير عادَةَ، وإنَّ أقلَّ العيبِ أن يجلس الرّجل في منزله، وإفراط الأُنس يُكسِبُ قُرناء السُّوءِ لمُستعمله، ويُذهب المهابة... خلاؤكَ أَقْنَى لحيائِك، وبُعدُكَ عن النَّاس أقربُ لحصول رجائِكَ في نجائِك، فأغمض جُهدكَ المُدَّخَل، واجهد ألاّ يكون حديثًا للناس فمن يِسْمَعْ يَخَل**)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ١٨٥).

هذه الموعظة ذات افتراض سابق أنَّ المتلقي من شأنه العبادة؛ لذلك ذكر له الكلاعي ضربًا من أضربها هو الاعتزال المنتج المعترض بين الافراط والتفريط، ويبدو افتراض آخر أنَّ المجتمع الذي يؤلف بيئة الخطاب يألف المجالس وكثرتها، فهي من المظاهر الاجتماعية والعادات الشعبية التي يفوق ضررُها نفعها، وبذلك يظهر افتراض هو أنَّ الوعظ على هذه الشاكلة من وسائل الاصلاح الاجتماعي، وأنَّ تغيير وجه المجتمع إنّما يؤتي إليه من أبواب منها هذا الخطاب الذي يستثمر الوازع الديني العبادي

عند المتلقي، وافتراض أنَّ المخاطب ذو منطق بقوله: (أقل العيب أن يجلس الرجل في منزله).

ولقد عمد الكلاعي في ترجمان مقاصده وافتراضاته إلى بنية لفظية متقنة إذ جعل البيت شبيهًا بصومعة العابد، وركز على أبرز حاستين بهما الهمّ والراحة (السمع والبصر) إذ هما مجلبة الشواغل غير الملزمة، وعلى المرء أن يحرص الحرص كله على أن يفيد منهما فائدة مثلى لا تنقاد له إلاَّ بضبط تلك الحاستين. وجعل الخير عادة وهذا يضمر الفكرة النقيض (الشر عادة)، ولما جعل الخير عادة فإنّما أراد القول: إنّ من المتاح إبدال عادة الشر بعادة الخير وكلّ عادة إن كان لا بدّ من عادة، فطالما المرء يجنح نحو الاعتياد فليعتد على الحسنى بدل السّوأى. وخاطب المتلقي بقوله: (إنّ أقل العيب أن يجلس الرجل في منزله)، وأراد المحاجّة المنطقية التي مفادها إنّ عُدَّ الجلوس في البيت عيبًا والجلوس في المجالس عيبًا، فإنّ المنطق أن يختار الرجل أقل العيبين الذي هو الجلوس في المنزل.

ولا يخفى بهذا أنَّ المدار الذي يعتمد عليه الكلاعي في التداول هو: الجانبان النفسي والاجتماعي، والأول بنية الآخر؛ لذلك هو يركز على هذين الأصلين ويتخذ منهما محور التواصل، وما من شك في أنهما من مُدركات المتلقي وليس ثمة مخبوء منهما عليه. فالخطاب الوعظي في تداوليته يمس الجانب النفسي عند المخاطب وهذا ادعى للتأثير ويحدث هزة ذات قوة، وكذا الجانب الاجتماعي المتوغل في أثره في سلوك المتلقي، ويمكن أن تعدُّ هذه التقانة سمة تداولية للخطاب الوعظي.

ومثل هذه الموعظة نجدها في قول الكلاعي: ((**اقضِ لعقلِكَ على هواك، ولسخطِكِ على رِضاك. فإذا مَوَّهَ لك الهوى غرضًا تشتهيه، وتسخّطهُ عقلُكَ تسخُّطَ المشنوءِ المكروه، فاطِعْ أمرَّ الأمرّين، فإنَّ العقلَ عند العاقبة أسرُّ الأمرين. وهو الباذل في نفعِكَ جُهْدَ حرصِه، فأَرسِل منه حليمًا ولا تُوصِه، وأبعد هواكَ الغرَّار وأقصِه، فهو الذي**

يأتِيك بالشَّرِّ من فَصِّه. وإن تَصَوّر لك مُطَهَّمًا[*] تَقْرُب عليكَ بامتطائهِ الآماد، فالحريصُ يصيدُكَ لا الجواد)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ١٥٨).

ففي قوله هذا يبرز افتراض سابق هو وجود اصطراع محتوم في نفس المتلقي، وأنَّ هذا الصراع من المشكلات التي يعانيها المتلقي، إذ يوجد عقل وهوى، غواية وهداية، ضلال ورشاد، سخط ورضا، زيف وحقيقة، شهوة وانصراف، تعتمل هذه الأحاسيس والقوى وتتغالب، وعند الهوى سعادة الجهلاء، وعند العقل سعادة العقلاء:

ذوَ العقـلِ يشـقى فـي النعـيم بعقلـهِ وأخـو الجهالـة فـي الشـقاوةِ يـنعمُ

(الجعفي، ١٩٨٣: ٥٧١)

وبذلك يكون قد أتيَ المخاطبَ من نفسه حيث معاناته وأحاسيسه وقواه ونوازعه، وهذا تدبير حسن من تدابير الوعظ وحنكة تحلى بها في خطابه.

ومن حسن أسلوبه ونهجه أنّه لم يسلب المتلقي عقله، بل جلاّه ووصفه وبين فضله وفضائله، وبهذا جعل المتلقي حكمًا لنفسه، فاتباع الهوى يضيع العقل الثمين، لكن بالعقل تصان الرغبات، فكل إنسان شهوان تغريه الشُّهى وبها نقصان سمته العاقلة، فعليه أن يتئذ فيما يشتهي، وأن يجتهد فيما يعقل.

ومثل هذا المنطلق في بنية الخطاب الوعظي نجده في قوله: **((أَحسنِ التَّدبيرَ، واعرفِ القبيلَ والدَّبير، ثم وجه الحجر وجهةً مَالَه، وأَجرِ الأمورَ على أذلالِها، تتعرَّف استقامةَ أمرِكَ واعتداله... اضرب وجه الأمرِ وعَينيه، وقلّبهُ ظهرًا لِبطنٍ تأمَنْ غائلةَ ما ينطوي عليه. ولا تغرنْكَ حلاوةُ الجَنَى من بعض النَّخلات، فربَّ أكلةٍ تَمنعُ أكلات. وترفَّق في الرأي متى عَرَضَ لك غرض مروم، فإنَّ الرِّفْقَ يُمن، والخُرْق شُوم))** (الكلاعي، ١٩٩٥: ١٤١-١٤٢).

إذ نجد الافتراض السابق هو ضرورة التدبير والاحتياط لكل أمرٍ بفحصه وتقليبه، وأنَّ المتلقي في مقام يقتضي تدبير الأمور، وأنّه ازاء أمر به حاجة إلى تدبير، وبهذا

---

[*] المطهَّم: الجواد التام الحسن. (ابن منظور، د. ت: ١٢/ ٣٧٢ مادة طهم).

يتحرك الكلاعي في خطابه نحو المتلقي سالكًا مسلكًا نفسيًّا ينتهي عند الحكمة والعقل واستعماله على الوجه المطلوب.

ولعل افتراضًا سابقًا يبدو في قوله: (ولا تغررك حلاوة الجنى...) هو وقوع المتلقي في مشكلة الاغترار فاقتضى الأمر التحذير.

وكذلك نجد مثل هذا الافتراض المنتمي إلى الخصال النفسية والخلال الشخصية في قوله: ((**من جنايات اللسان على الإنسان المِزاحَةُ المثيرُ للبغضاء والشَّنآن. وهي كما قالوا: تُذهبُ المهابة، وتسيء الاكتساحة للمروءة والانتهابة، فلا تُمازِحِ الشَّريفَ فيحقِدَ عليكَ، والدَّنيءَ فيجترئَ عليك ويخفَّ إليك**)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ٣٩)، إذ الافتراض السابق وجود ظاهرة المزاح الذي يتجاوز الحد ويعود على صاحبه بما لا يجمل ويحط من قدره، فضلاً عن أنَّ هذا الأساس اجتماعي أيضًا؛ لأنّه يتصل بما يصلح حال الناس الاجتماعية، فالافتراض السابق ((يُعبّر عن قصدية إنسانية أُنتج لأجلها الملفوظ، وهذه القصدية تستوجب إعادة بنائها ليتم في ضوئها فهم معناها الكلي)) (مشتة، ٢٠١٥: ٨٧)، فالافتراض السابق يقع في قوله هذا في الإطار النفسي والاجتماعي.

ومثله نجده في قوله: ((**الصَّمتُ يُكسبُ أهلَهُ المحبَّة، والجَهرَ بسوءِ القَولِ من غير المظلوم، عارٌ على راكبه وسُبَّةَ. آلامُ القول من أبرحِ الآلام، والنَّدمُ على السكوتِ خيرٌ من النَّدم على الكلام. عَيٌّ صامتٌ خيرٌ من وعَيٍّ ناطق، وغيمٌ مُخْلِفٌ خيرٌ من غيمٍ صادق بالصّواعق وادق**)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ٨-٩)، فالافتراض السابق وجود ظاهرة الهذر في الكلام والاستغراق فيه من غير طائل، فهو يجلب المهانة بدل المهابة ويزول به الوقار، فضلاً عن أنَّه يعدّو من الأدواء الاجتماعية لما يسببه ولاسيما الشكاية في غير مورد المظلومية من بغضاء توغر الصدور.

ومما قاله الكلاعي: ((**اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم، وسُدُّوا ما استطعتم خَلَلَكُم. وإن رشَّحَتْكَ مُسعِداتُ الأقدار في هذه الدّار لِحَظٌّ الأنْبَهِ والمنزل الأرقى، فلا تكُن حُلوًا فتُسترطَ، ولا مُرًّا فتُعقى. ابتغِ سبيلاً بين المرارة والحلاوة، فالانقباضُ مِن الناسِ مكسبةٌ للعداوة**)) (الكلاعي، ١٩٩٥: ١٣٦-١٣٧)، الذي نستنتج منه افتراضًا سابقًا

هو أنّ الملتقين من أولي الإيمان بالله وأنّهم على اختلاف مآله فساد أمورهم؛ لذلك توجه نحوهم بخطاب وعظي يرشدهم به إلى إصلاح ذات بينهم، وأنَّ هذا العمل من تقوى الله ومن أعظم القُربات، فالافتراض اجتماعي ديني. وبهذا نلحظ النسق الضابط للافتراض السابق عند الكلاعي الذي وظف هذه التقانة ((للدلالة على قصود متراكمة ينتظمها سُلم واحد))(الشهري، ٢٠٠٤: ٤٢٨).

خاتمة البحث ونتائجه:

ينتهي بنا القول إلى أنَّ الافتراض السابق طاقة لدى المتكلم تجتمع من تجاربه وخبراته وقوة حدسه، وبذلك يعدُّ الجزء الخفي المعنوي الذي يسهم في تأليف الكلام المعبر عن القضية، والمعبر عن موقف المتكلم في مقام الكلام عن القضية، ويمكن إجمال نتائج البحث بالآتي:

١- كلما نضج الافتراض السابق كلما قوي جانب المتكلم المعنوي، وارتفعت درجته، وأنَّ هذا ذو صلة بمقومات الشخصية من جهة المزايا الاجتماعية والمعرفية.

٢- يعدُّ الافتراض السابق مظهراً من مظاهر الإحاطة اللازمة لنجاح العملية التواصلية .

٣- تعدُّ التجربة رافدًا مهمًا يمنح المتكلم النظر الدقيق في تفاصيل القضية .

٤- من شأن الافتراض السابق أن يمدّ الخطاب التأثير في المتلقي عن طريق قوانين الخطاب.

٥- امتاز الافتراض السابق في خطب الكلاعي بأنّه كلما ازداد ثراء ودقة وصوابًا كلما زاد نصيبه من حفظ التواصل وانجاز قوانين الخطاب.

مصادر البحث ومراجعه:

- **القرآن الكريم.**

١- ابن الأبّار (ت٦٥٨هـ)، (٢٠١١): أبو عبد الله محمد بن عبد الله الالقضاعي ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١

٢- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، (د. ت): لسان العرب: دار صادر، بيروت.

٣- أرمنيكو فرانسواز (١٩٨٦): المقاربة التداولية، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط.

٤- أوريكيوني، كاترين كيربرات (٢٠٠٨): المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت.

٥- إيكو، أمبرتو (٢٠١٠): العلاقة بين تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط٢، الدار البيضاء.

٦- بلخير، عمر (٢٠١٣): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، دار الأمل، ط٢، المدينة الجديدة- تيزي وزو.

٧- بلعلي، آمنة (٢٠٠٣): الإقناع المنهج الأمثل للتواصل- نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، المجلد ٢٣، العدد ٨٩.

٨- بوخشة، د. خديجة (د. ت): محاضرات في اللسانيات التداولية، مستوى السنة الثالثة، ل م د LMD.

٩- الجعفي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت٣٥٤هـ)، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م): ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت.

١٠- جوزيف، جون إي، ولف، نايجل، وتيلر، تولبت جي (٢٠٠٦): أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي في القرن العشرين، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت.

١١- الجيلالي، دلاش (د. ت): مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

١٢- ديكرو، أوزوالد، وسشايفر، جان ماري (د. ت): القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت.

١٣- روبول، آن، وموشلار، جاك (٢٠٠٣): التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ترجمة: د.سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت.

١٤- سيرفوني، جان (١٩٩٨): الملفوظية، ترجمة: د. قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١٥- الشهري، عبد الهادي بن ظافر (٢٠٠٤): استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت.

١٦- صحراوي، د. مسعود (٢٠٠٥): التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، ط١، بيروت.

١٧- عكاشة، د.محمود (٢٠١٣): النظرية البراجماتية اللسانية التداولية (دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ): مكتبة الآداب، ط١، القاهرة.

١٨- فاخوري، د. عادل (٢٠١٣): محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ليبيا.

١٩- فوزية، دندوقة (٢٠٠٩): التأويل وتعدد المعنى، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الرابع، الجزائر.

٢٠- كاظم، د. مرتضى جبار (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م): اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، دار ومكتبة عدنان- بغداد، ودار الأمان- الرباط، ومنشورات الاختلاف- الجزائر، ومنشورات ضفاف- بيروت، ط١.

٢١- الكَلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى (ت٦٣٤هـ)، (١٤١٦هـ-١٩٩٥م): نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال: تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، ط١، دمشق.

٢٢- المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت٧٠٣هـ)، (٢٠١٢): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: تحقيق: د. إحسان عباس، ود. محمد ين شريفة، ود. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١.

٢٣- مشتة، مهدي، (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م): ديوان (الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق) لنزار قباني- مقاربة تداولية، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة- الجزائر.

٢٤- موشلر، جاك، وريبول، آن (٢٠١٠): القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عزالدين المجدوب، دار سيناترا، تونس.

٢٥- النجار، د. نادية رمضان (٢٠١٣): الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، مؤسسة حورس الدولية، ط١، الاسكندرية .

٢٦- نحلة، د. محمود أحمد (٢٠٠٢): آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: دار المعرفة الجامعية.

٢٧- يول، جورج (١٤٣١هـ-٢٠١٠م): التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، بيروت.